ورقة بحث الملتقى بعنوان

علم الكلام بين القبول والرفض،قراءة في المضامين والغايات.

المحور الثالث :الموقف من علم الكلام قديما وحديثا

مقدمة:

نشأت الفلسفة الإسلامية في كنف الإسلام وحضارته وارتبطت به أشد الارتباط ،وعالجت مشكلاته الفكرية معالجات عولت فيها على العقل واستدلالاته تارة، وعلى الذوق والوجدان تارة أخرى،فقدمت بذاك زادا عقليا وقوتا روحيا للمسلم في كل زمان ومكان .

ويمثل علم الكلام جانبا مهما من الفلسفة الإسلامية، ذلك لأنه العلم المتكفل بالدفاع عن العقائد الإيمانية وإثباتها بالدليل العقلي في مواجهة المشككين والمخالفين.

ولقد انطلق المتكلمون من نقاش ذاتي حول القرآن الكريم بما أثاره من أدلة في مواجهة الديانات والملل الأهواء والنحل السابقة ،فكانت هذه الأدلة نماذج حذوا حذوها ،وصارت أساسا من أسس الجدال مع هذه الديانات.

فخاض المتكلمون في جدالهم مع اليهود في أبحاث دارت حول الدفاع عن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم،وعن شرعية النسخ في الأحكام ،وبحث في التشبيه والتجسيم.

كما خاضوا في نقاشهم للمسيحيين في موضوعات دارت حول الكلمة وخلق القرآن ،والذات الإلهية وصفاتها،والحرية والمسؤولية.

وأنتجت لنا مواجهتهم للديانات الفارسية تفسيرات دارت حول الخير والشر،وما يتعلق بهما من بحوث ميتافيزيقية وأخلاقية واجتماعية،فخاضوا في بحوث حول العدل الإلهي والصلاح والأصلح

واللطف والعوض والتكليف...،وأدت مقاومتهم للغنوص إلى أن يخوضوا في مسائل تتعلق بجوانب عميقة من نظرية المعرفة.

وقد خلف المتكلمون من خلال مواجهتهم للديانات المخالفة تراثا لم يتعلق فقط بالعقائد ،بل امتد ليشمل أيضا جوانب أخرى ميتافيزيقية وطبيعية وأخلاقية.

وقد أحدث هذا الصراع الجدلي نوعا من التسرب لأفكار الخصوم ومعتقدات هذه الديانات واستخداما لأسلحتهم وأدواتهم ، فوقف فريق من العلماء من أصحاب المدارس الكلامية الكبرى موقف الحذرالشديد من هذا التسرب وقاوموه مقاومة عنيفة لا هوادة فيها.

ونحن من خلال هذه الورقة نريد أن نستجلي الموقف من علم الكلام قديما وحديثا ،مؤكدين على الدور الطلائعي والريادي لعلم الكلام والذي جعله يتبوأ مكانته بين العلوم الشرعية، ونكشف عن أصالة علم الكلام من ناحيتي الموضوع والمنهج.

تعريفات علم الكلام:

الكلام في اللغة هو:القول الدال على معنى يحسن السكوت عليه، وواحد الكلام كلمة،وهي اللفظ الذي يتألف من أصوات منطوقة على هيئة حروف وتشير إلى دلالة ومعنى[1].

وقد وردت لفظة الكلام في القرآن وفسرت بمعاني مختلفة ،ففي سورة الأعراف يقول تعالى:« قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي » [2] .

وفي سورة الفتح، يقول: « يريدون أن يبدلوا كلام الله،ثم يحرفونه » [3]. والمراد هنا التوراة، وفي موضع آخر من سورة التوبة يراد به القرآن، يقول تعالى[4]:« وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله»[5].

---

[1] قاضي القضاة بهاء الدين،شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، طبعة دار التراث،القاهرة،ص2،3.

[2] سورة الأعراف،الآية 144 .

[3] سورة الفتح ،الآية 15.

ولفظ الكلام الوارد في هذه الآيات لا يحتمل معنى زائدا على صورة الكلام المتلفظ به ،فلم يكن يتضمن إذا أي إشارة إلى المناقشة والجدل الدائر حول مسائل الاعتقاد.

واتخذ الكلام بعد ذلك معنى اصطلاحيا فيما بعد،وتفرد بمنهج عقلي خاص استهدف الدفاع عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، وسميت الأقوال التي تصاغ كتابة أو شفاهة على نمط منطقي أو جدلي كلاما،ولاسيما تلك التي تعالج المسائل الاعتقادية ،وقيل أنه العلم الذي يبحث في الاعتقاديات كالتوحيد والصفات ، ولما كان كلام الله أبرز مسألة أثارها المتكلمون لهذا أطلق اسم الكلام على مباحثه إشارة إلى أشرف أجزائه وهو صفة الكلام الإلهي وهي مسائل الأصول،ومنه شاع الاصطلاح على هذا العلم بعلم الكلام[6].

وتوجد عدة تعريفات لعلم الكلام، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر تعريف الفارابي المتوفى عام 339هـ ،وهو من أقدم التعريفات التي وصلت إلينا ،حيث يقول:« وصناعة الكلام ملكة يقتدر بها الإنسان، على نصرة الآراء والأفعال المحمودة التي صرح بها واضع الملة وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل»[7] .

يؤكد هذا التعريف أوجه الاختلاف بين علم الكلام وبين الفقه من ناحية ثم بينه وبين الفلسفة من ناحية أخرى. والعلوم الدينية لدى الفارابي نوعان:نوع يتعلق بنصرة ما جاء به الدين من العقائد والأحكام وتفنيد كل ما خالفه بالأدلة العقلية، وهذا موضوع علم الكلام، ونوع يتعلق باستنباط قضايا وأحكام من الآراء والأفعال المنصوص عليها في الدين وهو علم الفقه، فعلم الكلام يبحث في أصول الاعتقاد والبحث فيها نظري، بينما يعالج علم الفقه أحكام الشرع المتعلقة بالعبادات والمعاملات وهي أحكام عملية.

وتعلق علم الكلام بالأصول والفقه بالفروع يلقي الضوء على تسمية الإمام أبي حنيفة المتوفى عام 150هـ له بالفقه الأكبر[8].

والحقيقة أن هذه النظرة إلى طبيعة هذا العلم(أي علم الكلام) والتي تصل بين ما هو نظري وعملي في مجال البحث العقدي لا تعرف لغير الفارابي من علماء المسلمين .ولعل أهم ما يلفت الانتباه في هذا التعريف هو

---

[4] سورة التوبة، الآية 6.

[5] محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث ، القاهرة، 1422هـ-2001م،ص722.

[6] محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام،دار النهضة العربية،بيروت،لبنان، 1976م،ص129،130.

[7] الفارابي، إحصاء العلوم، تح: عثمان أمين،ط3 ،القاهرة ، مكتبة الأنجلو أمريكية ،1968م ،ص131.

[8] أحمد محمود صبحي، في علم الكلام،ج1، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، 2009م ، ص14،15.

تمييز الفارابي بين مسلكين في بنية هذا العلم ، الأول بنائي يهدف إلى إثبات العقائد والأحكام التي تحتويها الملة بالأدلة والبراهين الساطعة، والثاني هدمي يقصد به إبطال وتزييف كل ما يخالفها أو يناقضها.

وعلم الكلام حسب تعريف التهانوي هو:« علم يقتدر منه على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج ودفع الشبه » [9].

ويتضمن هذا التعريف أن المتكلم يتخذ العقائد الدينية قضايا مسلما بها ثم يستدل عليها بأدلة العقل حتى وإن أمكن الاهتداء إلى هذه العقائد بالعقل مستقلا عنها، وفي ذلك يقول التهانوي ،ويجب أن تؤخذ العقائد من الشرع ليعتد بها،وإن كانت مما يستقل العقل فيه ، وفي ذلك ما يميز علم الكلام عن الفلسفة .

أما العقائد الدينية أو أصول الدين فأهمها التوحيد والنبوة والمعاد أو الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر،وتدور هذه المسائل جميعا حول الله–ذاتا وصفاتا وأفعالا، يقول الإيجي المتوفى عام 756هـ:« وقيل في موضوعه هو ذات الله تعالى إذ يبحث فيه عن صفاته وأفعاله في الدنيا كحدوث العالم، وفي الآخرة كالحشر، وأحكامه فيها كبعث الرسل ونصب الإمام، وإذ تدور هذه المسائل وغيرها حول الله سمي هذا العلم بعلم التوحيد أو علم التوحيد والصفات،وقد سمي أيضا علم أصول الدين لأنه يتعلق بالأحكام الأصولية أو الاعتقادية في مقابل علم الفقه الذي يتعلق بالأحكام الفرعية أو العملية » .

وقد أشار ابن خلدون إلى هذه التفرقة بين علم الكلام والفلسفة بقوله: « واعلم أن المتكلمين يستدلون في أكثر أحوالهم بالكائنات وأحوالها على وجود الباري وصفاته،وهو نوع استدلالهم غالبا،وحتى إذا نظر المتكلم في الموضوعات الطبيعية،فإنما ينظر فيها من حيث أنها تدل على الفاعل أو الموجد،أما نظر الفيلسوف في الإلهيات فهو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته » [10].

وإشارة ابن خلدون هامة في الدلالة على أن المتكلم إذا عالج موضوعات هي من صميم مباحث الفلسفة كالجسم الطبيعي والحركة، فإنما يعالجها ليدعم بها اعتقادا دينيا لديه.

وقد أشار طاش كبرى زاده(ت عام 962هـ) إلى التفرقة من حيث الغاية بين علم الكلام والفلسفة، فيقول:

---

[9] التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، تح أحمد بسج، ط1، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1998م،ص31.

[10] ابن خلدون، المقدمة ، نشر وتحقيق علي عبد الواحد وافي،ص327.

« وقيل موضوعه–أي علم الكلام–من حيث هو موجود، وإنما يمتاز عن العلم الإلهي الباحث عن أصول الوجود المطلق باعتباره الغاية ،لأن البحث في الكلام على قواعد الشرع، وفي الإلهي على مقتضى العقل »[11].

أصالة علم الكلام من حيث الموضوع والمنهج:

فعلم الكلام شأنه شأن باقي العلوم الإسلامية قد وجد منطلقا له من القرآن الكريم موضوعا ومنهاجا :

1.موضوع علم الكلام:

فقد التزم علماء الكلام على اختلاف فرقهم بما حدده القرآن الكريم من أصول عامة في الاعتقاد، فقد تناول علم الكلام في دراسات علماء المسلمين المباحث المتعلقة بالله من حيث وجوده وربوبيته وألوهيته وأسماؤه وصفاته، وتناول موضوع النبوة والأنبياء ورسالاتهم،كما تناول بالدراسة الكتب المنزلة على الأنبياء من حيث عددها وصحتها وتحريفها، وتناول أيضا الغيبيات أو السمعيات التي تدرك عن طريق الخبر كالملائكة والجن واليوم الآخر ،وما تعلق بها من حساب وعقاب وجنة ونار،أي مصير الإنسان بعد الموت،كما تناول أشراط الساعة الصغرى والكبرى وما إلى ذلك مما لا يعرف إلا عن طريق خبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم.

فقد حدد القرآن الكريم صلة الله سبحانه بالعالم فهي صلة خلق وليس صانع أو محرك بالمفهوم الأفلاطوني أو الأرسطي ،وأنه سبحانه خلق الكون كله لحكمة لا بمقتضى الآلية أو المصادفة، قال تعالى:« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون» [12]، وأنه خلق كل شيء سبحانه بقدر،قال تعالى:« وخلق كل شيء فقدره تقديرا » ،وأنه سبحانه عالم بالكليات والجزئيات جميعا، قال تعالى:« لا يعزب عنه مثقال درة في السموات ولا في الأرض[13] »، وتشير آيات أخرى إلى حدوث العالم والخلق من عدم، قال تعالى:« هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا[14] » ، وآيات أخرى تشير إلى أن الإنسان خليفة الله في أرضه، قال تعالى:« إني جاعل في الأرض خليفة »[15] . وأن الإنسان خلق وفق دافعية الخير والشر،قال تعالى: « وهديناه النجدين. »،وأن الإنسان مسؤول مسؤولية فردية، قال تعالى:« ولا تزر وازرة وزر أخرى » [16].

---

[11] طاش كبرى زاده، مفتاح دار السعادة ومصباح السيادة ،مصدر سابق،ج2، ص20.

[12] سورة المؤمنون ،الآية 115.

[13] سورة سبأ،الآية3.

[14] سورة الإنسان،الآية 1.

[15] سورة البقرة ،الآية 30

وهكذا انبثق التفكير والنظر العقلي من هذه المواقف كما حددها القرآن الكريم،فراح علماء الكلام بأياته يستشهدون وبنصوصه يستدلون.

هذا من حيث الموضوع، أما من حيث المنهج:

2.منهج علم الكلام:

وقد اتخذ علم الكلام من القرآن الكريم أيضا منطلقا له من حيث المنهج المتبع في دراسة الموضوعات،فمنهجيا لا يتعارض النظر مع الإيمان ،فقد حث القرآن الكريم المسلمين على أن ينظروا في ملكوت السماوات والأرض، وأن يتدبروا ويتفكروا ، قال تعالى:« إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون» [17]، «إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون»[18] ، ومن ناحية أخرى ذم القرآن الذين لا يفكرون أو لا يعقلون.

ونجد أن بعض سور القرآن تعرض حوارا منطقيا لإفحام المشركين ، يقول أبو الحسن الأشعري: وأما الكلام في أصول التوحيد فمأخوذ أيضا من الكتاب ، قال تعالى:« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » [19]، وكان كلام المتكلمين في الحجاج في التوحيد بالتدافع والتغالب فإنما مرجعه إلى هذه الآية الكريمة، قال تعالى:« ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض[20] » ، وكلام المتكلمين في الحجاج في توحيد الله إنما مرجعه إلى هذه الآيات وغيرها، وكذا سائر الكلام في تفصيل فروع التوحيد والعدل إنما هو مأخوذ من القرآن.

وكذلك الكلام في جواز البعث أو استحالته التي قد اختلف عقلاء العرب من قبل فيه حتى عجبوا من جواز ذلك، فقالوا:« أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد » [21]، وقولهم :« من يحيي العظام وهي رميم »[22] ، وفي نحو هذا الكلام منهم إنما ورد بالحجاج في جواز البعث في العقول، حيث علم الله نبيه الكريم صلة الله عليه وسلم ولقنه الحجاج عليهم في إنكارهم البعث ،وطائفة جحدت ذلك بقدم العالم ،فاحتج على المقر منهما بالخلق

---

[16] سورة الإسراء ،الآية 15.
[17] سورة النحل،الآية 11
[18] سورة النحل،الآية12
[19] سورة الأنبياء،الآية 21
[20] سورة المؤمنون،الآية 91
[21]& سورة ق،الآية 3.
[22] سورة يس،الآية 78.

الأول،بقوله: « قل يحييها الذي أنشأها أول مرة » [23]، وبقوله: « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » [24].

وأما الطائفة التي أنكرت الخلق الأول والثاني، وقالت بقدم العالم، فدخلت عليها شبهة بأن قالوا:وجدنا المياه رطبة حارة والموت باردا يابسا وهو من طبع التراب فكيف يجوز أن يجمع بين المياه والتراب والعظام النخرة فيصير خلقا سويا والضدان لا يجتمعان، فاحتج الله عليهم:« الذي جعل من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون» [25].ردهم الله في ذلك إلى ما يعرفونه ويشاهدونه من خروج النار على حرها ويبسها من الشجر الأخضر على بردها ورطوبتها.

وهكذا فإذا تذكرنا أوائل المتكلمين من المعتزلة على وجه الخصوص، قد هبوا للدفاع عن الدين ضد المخالفين من أصحاب الديانات الأخرى ،تبين كيف كان القرآن الكريم منطلقا لنشأة علم الكلام،وأن النظر العقلي لا يتعارض مع الإيمان.

هذا ويتبع المتكلم في تأييد مواقفه عدة أساليب منها:

1.طريقة البرهان الكلامي:

فهو يتسلم مقدمات ويستنتج منها نتائج، وتسمى هذه الطريقة بطريقة التمانع، أو إبطال اللازم بإبطال الملزوم، يقول الغزالي :« المتكلمون يصدرون عن مقدمات تسلموها من خصومهم اضطرهم إلى تسليمها إما التقليد أو الإجماع أو مجرد القبول من القرآن أو الأخبار، وكان أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم، وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئا أصلا » [26].

ومعنى هذا أن المتكلم يبدأ من أقوال الخصوم ثم يصل عن طريق البرهان إلى نتائج تناقض هذه الأقوال فتبطلها ،أي يحاول إبطال النتائج فيكون هذا كافيا لإبطال المقدمات التي تقدم بها الخصوم.ولكن الغزالي يرى أن

---

[23] سورة يس،الآية 79.

[24] سورة الروم،الآية27.

[25] سورة يس ،الآية80 .

[26] الغزالي، المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال، تحقيق:جميل صليبا وكامل عياد، الطبعة السابعة ، دار الأندلس،بيروت،1996م،ص91 ،92 .

منهج المتكلم بصفة عامة لا يصلح في إقناع غير المسلم أو الجدلي الذي لا يسلم بغير البديهيات ، بينما يستند المتكلم إلى إيمان كامل مسبق بالأصول الاعتقادية.

2.طريقة التأويل:

حيث يلجأ المتكلم إلى تأويل النصوص التي يشعر أن مظهرها لا يتلائم مع الرأي الذي يريد أن يضعه ،وينصب التأويل عادة على الآيات المتشابهات،وبالفعل كان ظهور علم الكلام عن هذا الطريق.

3.طريقة التفويض:

وهو ترك الأمر لله واعتبار أن المسائل التي يبحثها المتكلمون فوق طور العقل، والحجة في التفويض كما يقول ابن خلدون أن أمورا خاصة جاءت عن طريق الوحي ، وهي تتضمن بعض الأسرار الإلهية التي يعجز العقل عن إدراكها أو فهم حكمتها ،فلو كانت من قبيل ما يستطيق العقل إدراكه، لما كانت هناك ضرورة في ورود لرسالة ونزول الوحي، وقد أتى الرسول بالفعل بأشياء يعجز العقل عن إدراكها، لكن الإيمان بها واجب وهذا مضمون التفويض[27].

غاية علم الكلام وثمرته

إن الغاية الكبرى التي يسعى إلى تحقيقها دارس هذا العلم من وراء دراسته له هو أن يصبح الإيمان عنده والتصديق بالأحكام الشرعية متقنا محكما لا تزلزله شبه المبطلين فيرتقي بذلك من حضيض التقليد إلى ذروة اليقين بسبب التمكن من الاستدلال وإلزام الخصوم والمعابدين بإقامة الحجة والبراهين عليهم ونفض غبار الشبه عن قواعد الدين.

[27] محمد علي أبو ريان،مرجع سابق،ص133،134.

وأما ثمرة علم الكلام فهو الفوز بسعادة الدارين والظفر بما هو كمال في الكونين ، فأما في الدنيا فبانتظام أمر المعاش بالمحافظة على العدل والمعاملة التي يحتاج إليها في إبقاء النوع الإنساني على وجه لا يؤدي إلى الفساد،وأما في الآخرة فبالنجاة من العذاب المترتب على الكفر وسوء الاعتقاد[28].

منزلة علم الكلام من العلوم الشرعية :

إن إطلاق مصطلح فلسفة إسلامية نعني به تلك الفلسفة التي نشأت وتطورت في ظل الإسلام وحضارته، وارتبطت به بأنواع مختلفة من الارتباط.

(أ) إما بالدفاع عن عقائده، وهذا ميدان علم الكلام.

(ب) أو بالتفهم الدقيق لأحكامه الشرعية العملية الفروعية،واستنباطها من أدلتها أو أصولها، وهذا ميدان علم أصول الفقه.

(ج) أو بالعناية بجانب التذوق الروحي لأحكامه وأخلاقه، وهذا ميدان علم التصوف، أو علم الحقيقة أو علم السلوك.

(د) أو بالملائمة والتقريب بينه وبين فلسفات أخرى وافدة إلى المسلمين،وهذا ميدان الفلاسفة الخلص أو الحكماء،ويطلق على فلسفتهم أحيانا اسم الحكمة.

ومعنى ذلك أنه يمكن التمييز بين:

(أ) الفكر الفلسفي الإسلامي في مجال العلوم الشرعية.

(ب) والفكر الفلسفي الخالص.

فالأول يشمل علوم الكلام والفقه والتصوف، والثاني يشمل محاولات فلاسفة المسلمين الذين تأثروا فيها بالثقافات الأجنبية وعلى وجه الخصوص الفلسفة اليونانية ،وعلى وجه أخص الفلسفة الأرسطية .وتستند العلوم الشرعية إلى علم الكلام،فيستند إليه الفقه مثلا استناد الفرع إلى الأصل،ذلك لأن علم الفقه يرتبط بالعمل،والعمل فرع عن النظر والاعتقاد.

---

[28] إبراهيم التهامي،العقيدة الإسلامية من القرآن الكريم والسنة النبوية ، دار قطبة للنشر والتوزيع،المحمدية، الجزائر،1433هـ-2012م، ص14 ،15.

وعلم التصوف بدوره يستند إليه أي إلى علم الكلام، ذلك لأن التصوف يبحث في الأحكام الشرعية-نظرية كانت أو عملية ،من ناحية آثارها في قلوب المتعبدين بها،من حيث أنه يعنى بجانب السلوك،والأخلاق على أساس من التذوق الروحي والوجدان القلبي،ومن هنا فهو يستند إلى علمي الكلام والفقه،إذ لابد للصوفي على الحقيقة من إلمام كامل بالكتاب والسنة كي يصحح اعتقاداته وعباداته ومعاملاته على اختلافها.

ويذكر التفتازاني أن انفصال هذه العلوم (يعني علم الكلام والفقه والتصوف) والتمييز بينها إنما هو اعتباري فقط ،ذلك لأن هذه العلوم يمكن أن تندرج تحت مسمى واحد هو الشريعة، وجاء هذا الانفصال والتمييز نتيجة التخصص العلمي الدقيق،الذي ظهر في الإسلام في وقت متأخر، أما قبل ذلك فكان اسم الفقه يطلق ليس فقط على العمليات من الشرع ،وإنما يطلق أيضا على الاعتقاديات والأخلاق[29].

وهذه المكانة الهامة لعلم الكلام ، يمكن أن نلمسها بشكل واضح في تصنيف العلوم عند العرب، والذي قام عندهم على بيان تصورهم للمعرفة البشرية،وتوضيح علاقات أجزائها بعضها ببعض موضحين ترتيب العلوم من حيث الخصوص والعموم،ومبينين حدودها،والعلاقات القائمة بينها.

ونجد هذا في تصنيف الفارابي، وإخوان الصفا، وابن النديم، والخوارزمي، والغزالي، وابن خلدون، وطاش كبرى زاده وغيرهم [30].

المواقف من علم الكلام:

اختلفت المواقف بإزاء علم الكلام بين مؤيد له ومعارض وأخذ منه بقدر:

1.فريق المؤيدين:

نجد فريقا من المسلمين أبدا الاشتغال بعلم الكلام ،ويقف على رأس هؤلاء المؤيدين المتكلمين أنفسهم ،وهؤلاء رأو ضرورة النظر في مصنفاتهم ،بل وأفرد بعضهم كتلا خاصة لأهمية النظر ،ومثال ذلك استهلال

---

[29] جمال الدين المرزوقي، دراسات في علم الكلام والفلسفة الإسلامية ، ط1، دار الآفاق العربية ،القاهرة ،1421هـ-2001م،ص14،13.

[30] المرجع نفسه، ص14.

الماتريدي كتابه التوحيد لبيان أن سبيل معرفة الدين تتم بالنظر بجانب العقل،ونجد للأشعري كتاب استحسان الخوض في علم الكلام، يبين فيه ضرورة النظر في الدين، وأن النظر مأمور به وليس منهيا عنه ، ومن بعده نجد الأشاعرة أمثال الباقلاني والجويني ،وغيرهما من أتباع هذا المذهب يوضحون أهمية النظر في الدين، ونجد أيضا لدى المعتزلة دعوة واضحة وصريحة لأهمية النظر، بل تقديمه على السمع ، إذ عليه يتوقف صحة السمع ،ونجد ذلك في مؤلفاتهم كما ذكرها القاضي عبد الجبار في المحيط بالتكليف ،وشرح الأصول الخمسة ،وأفرد كتابه المغني في أبواب التوحيد والعدل ،بعنوان النظر والمعارف على بيان أهمية النظر وأنه أول الواجبات على المكلف [31].

ولقد قدم هذا الفريق أدلته العقلية والنقلية ونوجز هذه الأدلة كما ذكرها الإيجي في المواقف:

الأول: الترقي من حضيض التقليد إلى ذروة اليقين ، قال تعالى: « يرفع الله الذين امنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » .وأن إيمان المستدل أقوى من إيمان المقلد الذي يكون عرضة للشكوك، ولا يستطيع دفع تلك الشكوك لأنه لا يملك الدليل على صحة إيمانه.

الثاني: إرشاد المسترشدين بإيضاح الحجة وإلزام المعاندين بإقامة الحجة.

الثالث: حفظ قواعد الدين عن أن تزلزلها شبه المبطلين.

الرابع: أنه يبنى عليه العلوم الشرعية فإنه أساسها، وإليه يقول أخذا واقتباسا.

الخامس: صحة النية والاعتقاد،إذ بها يرجى قبول العمل، وغاية ذلك كله الفوز بسعادة الدارين.

وهذا الفريق يرى أن علم الكلام هو أعلى مرتبة في العلوم، إذ أن موضوعه أعم .

ويرى هذا الفريق أن علم الكلام هو أعلى مرتبة في العلوم ،إذ أن موضوعه أعم الأمور وأعلاها وغايته أشرف الغايات وأجداها ودلائله يقينية يحكم بها صريح العقل،وقد تأيدت بالنقل وهي الغاية في الوثاق وهذه هي جهات شرف العلم لا تعدوها، فهو إذا أشرف العلوم.

واستند هذا الفريق إلى ما ورد في القرآن الكريم في أكثر من موضع في الحث على النظر والتماس العلم والبعد عن الظن.

---

[31] علي عبد الفتاح المغربي، الفرق الكلامية مدخل ودراسة،ط2، مكتبة وهبة، القاهرة، 1415هـ، 1995م،ص102،103.

2.فريق المعارضين:

ويقابل هذا الفريق المؤيد لقيام علم الكلام فريقا آخر يعارض قيامه ويرى أن في الاشتغال فيه مضرة بالغة وأن الدين قد نهي عنه، وإلى التحريم ذهب الأئمة مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وجميع أهل الحديث من أهل السلف[32].

فأما مالك ،فقد قال فيه الإمام الشافعي رحمه الله تعالى رحمة واسعة:« إذا ذكر العلماء فمالك النجم، ولم يبلغ أحد في العلم مبلغ مالك، لحفظه وإتقانه وصيانته، ومن أراد الحديث الصحيح فعليه بمالك » .

وقال فيه الإمام أحمد :« كان مالك مَهيبًا في مجلسه لا يُرَدُّ عليه إعضامًا لَهُ » .

وقيل: كان الثوري في مجلس مالك فلما رأى إجلال الناس له وإجلاله للعلم أنشد:

يأتي الجواب فلا يراجـــــــع هيبـــة فالسائلون نواكـــــس الأذقـــان

أدب الوقار وعز سلطان التقـــــــى فهو المـهيب وليس ذا سلطـــــان

وكان الإمام مالك(ت179) عاشق المدينة ، فآثر بقائه فيها عن حب وإيمان بفضلها ،وقد صور حبه لها فيما يرويه عنه القاضي عياض من المالكية، حيث قال:« المدينة محفوفة بالشهداء وعلى أنقابها ملائكة يحرسونها، لا يدخلها الدجال ولا الطاعون، وهي دار الهجرة والسنة، وبها خيار الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهجرة النبي صلى الله عليه وأصحابه، واختارها الله له بعد وفاته، فجعل بها قبره ، وبها روضة من رياض الجنة ، ومنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس ذلك لشيء من البلاد غيرها » .

وقناعة الإمام مالك بمكانة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم في باب العلم الشرعي هي التي جعلته يرفض الرحيل عنها إلى بغداد،حيث تروي بعض كتب المناقب أن عدم رغبة مالك في

---

[32] علي عبد الفتاح المغربي،مرجع سابق، ص104.

الذهاب إلى العراق راجع إلى رأيه في أهلها:« فأما أهل العراق فأهل كذب، وباطل وزور، وأما أهل الشام فأهل جهاد، ليس عندهم كثير علم، وأما أهل الحجاز ففيهم بقية علم »[33] .

وقد آثر الإمام مالك جو المدينة لأنه بعيد عن صخب أهل الكلام والجدل، حيث روي عنه أنه قال في الكلام وأهله :« إياكم والبدع ،قيل يا أبا عبد الله وما البدع؟ قال :أصحاب البدع هم الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان» ،وفي قول آخر له: « الكلام في الدين أكرهه ولا يزال أهل بلدنا – يقصد المدينة المنورة–يكرهونه ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل » .

وقال مالك أيضا :لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء ،وقال بعض أصحابه: أراد بأهل الأهواء أهل الكلام ،على أي مذهب كانوا، ونبه مالك إلى مضرة الجدل في الدين وأن يكون سبيل معرفة الدين طريق الجدل ،فيقول رحمه الله : أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه، أيدع دينه كل يوم لدين جديد؟ يعني أن أقوال المتجادلين تتفاوت ، فالجدل بذلك يؤدي إلى الفرقة والانقسام في الدين.

لقد أدرك مالك أن الجدل وحب الغلبة يجر الناس إلى تأويلات ربما لا تستند إلى دليل، وهذا وبال على العلم وأهله، قبل أن يكون وبالا على الناس،لذلك رفض الإمام مالك التأويل الذي يقود إلى القول بغير علم،حيث قال:« إنما أهلك الناس تأويل ما لا يعلمون » .

وكراهية الإمام مالك للتأويل ورفضه له يناقض ما أخذ به نفسه من أن لا يقول إلا بما وثق من دليله، وأن يطرح مافيه شك إلى أن يثبت له خلاف ما عنده بنص أو بفهم مستند، قال ابن وهب: قال مالك :خير الأمور ما كان منها واضحا ،بينا أمره ، وإن كنت في أمرين أنت منهما في شك ،فخذ بالذي هو أوثق » .

وكان القياس أيضا عند الإمام مالك أضيق دائرة منه عند غيره من الفقهاء في عصره،ذلك أن القياس عنده نوع من الرأي لكنه يلتزم في بالأصول من الكتاب والسنة ،ويتشدد في ذلك خوفا من

[33] أبو اليزيد أبو زيد العجمي، العقيدة الإسلامية عند الفقهاء الأربعة،ط1، دار السلام ، القاهرة، 1428هـ-2007م،ص206-207.

أن يزيغ العقل أو يبتعد عن الدلالة الحقيقية للنص من الكتاب والسنة، لذا كان يقول:« إنما أنا بشر أخطيء وأصيب، فانظروا رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه » [34].

أما موقف أبوحنيفة فلقد نهى ابنه حماد : رأيتك وأنت تتكلم فما بالك تنهاني ؟ فقال: يا بني كنا نتكلم وكل واحد منا كأن على رأسه الطير مخافة أن يزل صاحبه، وأنتم اليوم تتكلمون ،كل واحد يريد أن يزل صاحبه ،ومن أراد أن يزل صاحبه فكأنه أراد أن يكفر ، ومن أراد أن يكفر صاحبه فقد كفر قبل أن يكفر صاحبه.

وأبو حنيفة هنا ينبه إلى علة تحريم علم الكلام وهي لا ترجع إلى طبيعة الكلام ذاته بل ترجع إلى استخدام المتكلمين للجدل، إذ يصبح الجدل غاية في ذاته ولا يكون سبيلا موصلا إلى الحقيقة ،بل سبيل إفحام الخصم وتكفيره .

وأما الإمام الشافعي فقد كان أكثر نكيرا على المتكلمين ، حيث أنه يجعل الاشتغال بعلم الكلام من أعظم الكبائر ،فيقول لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير من أن يلقاه بشيء من علم الكلام ، فهو يلي الشرك من حيث عظم الذنوب وأشدها .والشافعي كان سيء الظن بعلم الكلام وبسوء نتائجه فقال محذرا من الاشتغال به: لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد ، وأفتى بأن يضرب أصحاب الكلام بالجريد ويطاف بهم بين العشائر وقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام.

والشافعي بذلك يرى في علم الكلام خروج عن الكتاب والسنة أو استهانة بهما وترك لهما ،ولكن يذكر ابن عساكر أن كراهية الشافعي لعلم الكلام لا تنصرف إلى كلام القدرية وأهل الأهواء والبدع، بل ويروى أنه قد ناقش هؤلاء وأبطل أدلتهم وبلغ في علم الكلام مبلغا عظيما[35].

---

[34] أبو اليزيد أبو زيد العجمي، مرجع سابق،ص220.

[35] علي عبد الفتاح المغربي،مرجع سابق،ص 105.

ولم يكن الإمام أحمد أقل من سابقيه من الفقهاء في ذم علم الكلام ،فقد قال:لا يفلح صاحب الكلام أبدا ،ولا تكاد ترى أحدا نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل .

وبالغ في ذم هذا العلم حتى هجر الحارث المحاسبي مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتابا في الرد على المبتدعة وقال له:ويحك ألست تحكي بدعتهم أولا ثم ترد عليهم؟ ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر في تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث، بل لقد كان ابن حنبل أكثر تشددا من سابقيه فأفتى بأن علماء الكلام زنادقة.

ويمكن تلخيص موقف المعارضين فيما يلي:

يرى أصحاب هذا الرأي أن الكتاب والسنة يغنيان عن أي مصدر آخر في معرفة الله عز وجل وإثبات توحيده، وصفاته وأسمائه الحسنى،وأن هذا الكتاب جاء تبيانا لكل شيء،وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قام بالتبليغ، قال تعالى:« االيوم أكملت لكم دينكم» [36] .

آثر أصحاب هذا الرأي الوقوف على ما كان عليه الصحابة والتابعون من العزوف عن البحث والنظر العقلي في أصول الدين لو كان خيرا لما فات النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ولتكلموا فيه.

ما يتولد من استخدام علم الكلام من شر،وذلك خشية الفتنة بسبب استخدام المصطلحات الكلامية التي لم يأت بها الكتاب والسنة، إذ لم يدع الرسول صلى الله عليه وسلم الناس في أمر التوحيد إلى الاستدلال بالجواهر والأعراض، فضلا أن هذه المصطلحات قد أدت إلى الخصومات والمنازعات بسبب عدم الاتفاق على مدلولاتها، فكان لكل فرقة كلامية تشققات كلامية عن غيرها ،وظهرت الفرقة بين صفوف المسلمين.

---

[36] سورة المائدة، الآية3.

وخلاصة القول حول الرأي المعارض لعلم الكلام نجدهم قد غفلوا عن المهمة الدفاعية التي اضطلع بها علم الكلام عبر مساره التاريخي ،وكذا لم يضطلع بالمهمة التوضيحية التي فسر بها العقيدة تفسيرا عقليا[37].

وأما تعليق رفضهم على كونه لم يؤثر عن الصحابة الخوض في مثل تلك القضايا الكلامية،ففي زمن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة مثل تلك المسائل ،لذلك لم يؤثر عنهم الخوض فيها.

ثم إنه لا يمكن القول بأن هذا العلم بدعة، وأن استخدام مصطلحات الجوهر والعرض وغيرهما لم تعهدها الصحابة، لأن العلوم الإسلامية قد تكونت من بعد عهد الصحابة ولم تكن في عهدهم، وقد جاءت هذه المصطلحات من أجل فهم العلم وتفسيره، وإن لكل علم مصطلحاته كالحديث والتفسير والفقه وغير ذلك من العلوم، فلا إشكال في استخدام تلك المصطلحات .

وعليه فالمعارضة المطلقة لعلم الكلام لا يمكن قبولها مطلقا.

3. موقف الذين توسطوا بين الرفض والقبول:

ونجد هؤلاء قد ميزوا بين موضوعات علم الكلام ،فمنه الكلام المحمود ومنه الكلام المذموم، وأيضا ميزوا بين المشتغلين والمهتمين به وبين الممنوعين عن الاشتغال به.

والكلام المحمود هو المباحث الخاصة بإثبات الواجب لله تعالى وصفاته والنبوة والمعاد، وهذه المسائل هي أصل العلوم الشرعية وأساسها وهي تفصيل الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .وهذه المباحث إنما هي لتقوية الكتاب والسنة لا لمخالفتها، فلا حرمة ولا كراهة فيها ، بل هي فرض ،وبالتالي فمعرفة هذه المباحث إنما يكون على وجه الإجمال فرض عين على كل مسلم ،وعلى وجه التفصيل هو من فروض الكفاية[38].

وفيه أيضا حراسة العقيدة على العوام ، وحفظها عن تشويشات المبتدعة ، وهذه من فروض الكفايات. والنموذج الذي بين أيدينا بالنسبة لهذا الفريق الذي توسط بين المؤيدين والمعارضين هو

---

[37] علي عبد الفتاح المغربي، مرجع سابق، ص106،107.

[38] المرجع نفسه ، ص107.

حجة الإسلام أبي حامد الغزالي الذي يرى أن دراسة علم الكلام هو من فروض الكفايات ،ولكن ليس من الصواب تمدريسه على العوام كتدريس الفقه والتفسير ،ذلك أن الكلام إنما هو مثل الدواء، وأما الفقه والتفسير فهما مثل الغذاء ،وضرر الغذاء إنما لا يحذر ،بينما ضرر الدواء فهو محذور.

ويرى الإمام الغزالي أن علم الكلام مباح عند الحاجة إليه في إزالة الشكوك في أصول العقائد والذود عن الدين ضد شبه المبتدعين ورد حججهم والكشف عن أمور مخالفة للسنة فلهجوا بها ،وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها. فأنشأ سبحانه وتعالى طائفة المتكلمين وحرك دوافعهم لنصرة السنة المأثورة بكلام مرتب يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثة على خلاف السنة المأثورة ،ومنه نشأ الكلام وأهله[39].

وعليه فعلم الكلام مباح عند الحاجة إلى الحاجة إلى ذلك، ويجب أن يؤخذ منه بقدر الحاجة وأن يقتصر فيه على الجلي الظاهر وعدم التعمق في الأبحاث والتفريعات.

وأما المذموم من الكلام ،فهو المخالف للكتاب والسنة كإدخال مسائل لا توافق الكتاب والسنة أو إثبات مسائل على وجه لا يوافق الكتاب والسنة [40].

ويذكر التفتزاني في شرحه على العقائد النسفية طوائف أربعة تمنع من الاشتغال بعلم الكلام،وهي تمثل الكلام المذموم:

الأولى: من هو متعصب يقصد به ترويج مذهبه فيحرم لذلك تحقيق الحق في مطالبه.

الثانية : من ثمة يرزق فطنة تقي بتحصيل اليقين ،وبالتالي فنظره يفضي إلى التشكيك في قواعد الدين، فعليه أن يتسم بسمة العاجز، ويتدين بدين العجائز.

---

[39] الغزالي،إحياء علوم الدين ، دار ابن حزم، بيروت،لبنان،ط1، 1426هـ-2005م، ص 117،51،49، 166.

[40] طاش كبرى زاده، مصدر سابق، ج2، ص157،158 .

الثالثة: من هو معوج في الدين مخطيء طريق اليقين، وغرضه من الاشتغال بمقاصده والتمكن من إبطاله ورده.

الرابع: من يتوغل في الحكمة ، فيقع في ظلمات الفلسفة ،فربما يعجب بفكره ورأيه والحق من ورائه.

وعلى هذا فإن علم الكلام عند هؤلاء ليس محمودا لذاته أو مذموما لذاته بل هو كما يقول الغزالي:« إن فيه منفعة وفيه مضرة فهو باعتبار منفعته في وقت الانتفاع حلال أو مندوب إليه أو واجب كما يقتضيه الحال وهو باعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومحله حرام » [41].

[41] الغزالي ، إحياء علوم الدين، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ص97.

الخاتـــــــــــــــمة:

لقد قام علم الكلام عبر مساره التاريخي الحافل بالعطاء بدور بالغ الأهمية في الحجاج على العقائد الإيمانية الدينية بالأدلة الواضحات ، وقد وضح ابن عربي في الفتوحات المكية مقاصد هذا العلم وأهدافه حيث يقول: وعلماء هذا العلم رضي الله عنهم ما وضعوه وصنفوا فيه ليثبتوا في أنفسهم العلم بالله وإنما وضغوه ردعا للخصوم الذين جحدوا الإله أو الصفات أو الرسالة أو رسالة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة أو حدوث العالم أو الإعادة إلى هذه الأجسام بعد الموت أو الحشر والنشر ومايتعلق بهذا الصنف، وكانو كافرين بالقرآن مكذبين جاحدين له فطلب علماء الكلام إقامة الأدلة عليهم عل الطريقة التي زعموا أنها أدتهم إلى إطال ما ادعينا صحته خاصة حتى لايشوشو على العوام عقائدهم .

فمهما برز في ميدان المجادلة بدعي برز له أشعري أو من كان من أصحاب النظر ولم يقتصرو على السيف رغبة على أن يردو واحدا إلى الإيمان والانتظام في سلك أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فالبرهان عندهم قائم مقام تلك المعجزة في حق من عرف، فإن الراجع بالبرهان عندهم أصح إسلاما من الراجع بالسيف فإن الخوف يمكن أن يحمله على النفاق وصاحب البرهان ليس كذلك.

ولهذا وضع علماء الكلام علم الجوهر والعرض لاغير، ويكفي في المصر الواحد واحد من هؤلاء المتكلمين ثم يوصي ابن عربي الشخص المؤمن بالقرآن أن يأخذ عقيدته منه إذ لا معرف عليه مثل كلامه

ومعنى ذلك أن هدف علم العقيدة عند ابن عربي هو الدفاع عن العقائد الإسلامية ضد خصومها المبطلين وهناك فائدة أخرى يتضمنها هذا العلم هو اجتذاب هؤلاء الخصوم إلى حضيرة الإيمان.